



الحمد لله وبعد،

إلى كل مسلم في الشام.. وإلى كل مسلم جسده في فجاج الأرض وقلبه في الشام.. ها قد تقاربت الجبارية موعدهم الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.. فإن كان الصليبي قد سبقه لها بالدرونز.. فقد جاء الذهري بسوخوي ضناً أن يختصوا دونه بشؤم الجريمة.. وأول من تلقى نيران غاراتهم لم يكن جزار الأطفال بالبراميل.. بل الأطفال أنفسهم والنساء وفصائل الثوار الفاضلة..

ومازال سباع الغرب يظنون أنه لا يليق أن يشغل غيرهم منصب أستاذ حقوق الإنسان والحرية..

تحرّك هؤلاء كلهم بمجرد أن طرق المجاهدون حلقة الباب على الساحل النصيري..

صيانته مبرمل الأطفال أغلى لدى أستاذ حقوق الإنسان من ضحاياه..

لكم الله يا أهل السنة في الأرض المباركة.. غدوتم بين خوذة الجبارية وضفائر الأزارة.. إن أفلت مجاهدكم من صاروخ هؤلاء احتضنته مفخخات أولئك..

وفي شبيه هذه النوائب يحال لبعض الحاببين أن النذارة تقتضي التهويل، فلا يزال يخطب بالهلع حتى تنكسف القلوب.. وتتبدد جمعية التوكل.. ويتيه تعلق النفوس بالله إلى التضرع للقوى الإقليمية.. وتسوّل النصرة ممن قد يكون في ميزان الله أحوج إليك منك إليه.. وهكذا كم من شقيق حجب عن أهله الباب وهو يروم نجتتهم..

بل ربما داشر عبارات بعض هؤلاء المهوّلين شيئاً من الجزع وشبيه العويل، وقد صور حال هؤلاء أبو العباس بن تيمية تصويراً بدعاً فقال تغمده الله برحماته: (وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكل، وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكّل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى) [الفتاوى: 18/295]..

وعلوم الاستراتيجيات والتخطيط المعاصرةاليوم تزید التأکید أن تهويـل بـأس وـمنـعـة العـدو في النـفـوس جـزـء منـالـحـرب النفـسـيـة (Psywar).. وـعـكـسـه تقـليل شـوكـة العـدو وـرـبـاطـة جـائـشـه منـ الدـعـمـ الـمـعـنـويـ الذـي يـقـوىـ القـلـوبـ وـيعـزـزـ الروـحـ المـعـنـويـةـ، وـقدـ نـبـهـ عـلـىـ هـذـاـ القرآنـ تـنبـيـهـاـ عـجـيبـاـ عـلـىـ ثـلـاثـ مـرـاتـبـ، فـيـ قـصـةـ يـوـمـ بـدـرـ: إـنـ اللهـ فـيـ تـهـيـةـ الـأـمـرـ أـرـىـ نـبـيـهـ فـيـ مـنـامـهـ الـكـفـارـ وـعـدـهـمـ قـلـيلـ كـمـاـ قـالـ اللهـ {إـذـ يـرـيـكـهـمـ اللـهـ فـيـ مـنـامـكـ قـلـيلـاـ وـلـوـ أـرـاكـهـمـ كـثـيرـاـ لـفـشـلـتـمـ وـلـتـنـازـعـتـمـ فـيـ الـأـمـرـ}ـ فـقـويـتـ عـزـيمـتـهـمـ عـلـىـ لـقـائـهـمـ..

ثم لما تقابل الصفان أرى سبحانه كل طرف الآخر بأقل مما هو عليه ليستطيعهم ببعضهم ولغيري كل فريق بالآخر كما قال الله {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ النَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالُ الْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا}..

ثم لما التحم الجيشان أظهر الله المسلمين في عيون الكفار ضعف عدهم فاستطيرت قلوب الكفار هلاعاً وتزايلت أطرافهم ذرعاً فامکن الله المسلمين منهم، كما قال الله {قَدْ كَانَ لَكُمْ آتِيَةٌ فِي فِتْنَتِنَا فِتْنَةٌ تُقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَى كَافِرَةٌ يَرْوَاهُمْ مِثَانِيهِمْ رَأَيِ الْعَيْنِ}..

وهكذا فإن الشيطان كان يجرئ الكفار على اصطدام أهل الإسلام بتهويـل قـوةـ الكـفـارـ فيـ نـفـوسـهـمـ وـأـنـهـ لـنـ يـغـلـبـهـمـ أحدـ كـمـاـ قـالـ اللهـ {وَإِذْ زَيَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ}..

ومفهوم تـشـرـيدـ الـخـلـوفـ، وـمـفـهـومـ إـعـادـ الـقـوـةـ لـلـتـرهـيـبـ، فـيـ الـقـرـآنـ، هـيـ أـيـضاـ جـزـءـ مـنـ دـلـالـاتـ هـذـاـ الـمـعـنـيـ الـنـفـسـيـ فـيـ الـحـرـوبـ، وـبـابـ هـذـاـ يـطـوـلـ..

والمراد أن هذه اللغة التخويفية الترهيبية الإحباطية في الحديث عن تواظع الأمم على الأرض المباركة، والتي يستعملها بعض الأفضل هذه الساعة، ليست الطريق الشرعي في هذه الدهنية، فهذه اللغة النياحية مثقال التخزيل، ونحن اليوم أشد ما نكون للغة التثبيت وأنفاس المبشرات، فإنما القوة قوة القلب، والنصر صبر ساعة..

وهذا لا يعني عدم ذكر قـوـةـ الـعـدوـ بـحـقـ دونـ زـيـادـةـ، وـعـلـىـ وجـهـ الدـعـوـةـ لـلـثـبـاتـ وـالـعـمـلـ، كـمـاـ قـالـ اللهـ {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأَسِ شَدِيدٍ}..

والمؤمن بالـقـطـنـ يـفتحـ وـعـيـ المـسـلـمـينـ لـقـضـاـيـاهـ، ويـحرـكـ هـمـمـهـ لـيـعـصـبـواـ جـراـحتـهـمـ، معـ الـاحـتـرـاسـ أـنـ يـدـخـلـ فـيـ حـدـ الإـرـجـافـ.. فـقـدـ شـنـعـ الـقـرـآنـ عـلـىـ كـلـمـاتـ الإـرـجـافـ وـقـتـ الـحـربـ، كـمـاـ قـالـ اللهـ {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنْفَرِيَنَّ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارِوْنَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا}..

وـكـمـاـ ذـكـرـ أـهـلـ التـفـسـيرـ أـنـ الـمـرجـفـينـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ "قـوـمـ كـانـواـ يـخـبـرـونـ الـمـؤـمـنـينـ بـمـاـ يـسـوـؤـهـمـ مـنـ عـدـوـهـمـ، فـيـقـولـونـ عـنـ سـرـايـاـ الـمـسـلـمـينـ: إـنـهـمـ قـدـ قـتـلـواـ أـوـ هـزـمـواـ، وـإـنـ الـعـدوـ قـدـ أـتـاـكـمـ"ـ، مـاـ يـخـتـلـطـ فـيـ الـحـقـ بـالـبـاطـلـ، وـأـصـلـ الإـرـجـافـ الـحـرـكةـ وـالـاضـطـرـابـ، وـاستـعـملـتـ هـنـاـ لـأـنـهـ يـحـصـلـ بـمـثـلـ كـلـمـاتـهـمـ هـذـهـ اـضـطـرـابـ تـمـاسـكـ الـمـجـتمـعـ الـمـسـلـمـ..

فـأـيـ الـوـجـهـ إـذـ؟

الـقـبـلـةـ حـقـاـ تـحـتـ دـخـانـ هـذـهـ المـدـلـهـمـةـ إـيقـادـ سـُرـجـ الـقـرـآنـ حـتـىـ تـنـكـشـفـ الـمـخـارـجـ وـالـدـرـوـبـ وـأـنـفـذـ الـأـسـلـحـةـ وـأـمـکـنـ العـتـادـ.. وـيـتـدـلـىـ للـقـلـوبـ حـبـلـ التـعـلـقـ بـالـلـهـ إـنـاـ هـوـ يـلـقـفـ مـاـ يـأـفـكـونـ..

وـسـنـعـرـضـ فـيـمـاـ يـلـيـ بـعـضـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ الـقـرـآنـيـةـ:

قطعـ العـلـائقـ:

من أعظم أنوار القرآن في نظير هذه الداهية استحضار أن الله يقدر على أهل الإسلام تحذّب أعداء الدين وتواثقهم عليهم ليتحسن التوكل على الله.. ففي مشهد مهيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحكيه القرآن لنا في لحظة اكتظاظ الأعداء يقول الله: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوهُمْ فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ}

يا لجلالة المشهد.. يقال له إن الأعداء أبرموا صفة وتحالفوا وهم حولكم الآن.. فيقصد القلب في معراج العبودية ويقول "حسبنا الله"، والحسب يأتي بمعنى الكفاية، أي أن الله كافينا.. ثم يثنى على الله ويعظمه فيقول "ونعم الوكيل"، وأصل الوكالة الاعتماد، والوكيل هو الذي يعتمد عليه فيتولى الأمر..

فقوله "حسبنا الله ونعم الوكيل" حاصل معناها "الله كافينا وهو نعم من نعتمد عليه" ..

ولعلك لاحظت أن القرآن قبل أن يذكر مقولتهم هذه {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ} ذكر أن حالاً إيمانية لهم سبقت ذلك فقال عنها {فَزَادُوهُمْ إِيمَانًا}.. ظهر بذلك أن تلك المقوله التي فخر الله شأنها "وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ" إنما هي ثمرة وأثر لقلب جigel باليقين بالله في اللحظة التي تعثر فيها قلوب أكثر الخلق في شفقة الشكوك وصدوع الارتباطات.. وكم ينساب من الألسنة في مضائق المواقف كلمات إيمانية تبهت المستمعين يظنها الناس من براعة البيان وإنما هي من حرارة القلوب.. فإذا رأيت المعنيين بالشام تتفاوت كلماتهم فاعلم أن وراء ذلك قلوبًا تفاوت..

بل انظر كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه ضمن حدود سيطرة الكفار وبينهم وقد اشتد الطلب عليه، ووصلوا لمكان وجودهم فعلاً، بل لم يكن بين كفار قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلا أن يخوض أحد الكفار عينه ليراهם دونه، كما في البخاري عن أبي بكر (كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا).. فكفهم الله إياهم وبلغ بهم الإيمان بمعية الله أعظمه، كما قال الله: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}..

فإذا تدبر المؤمن هذا الخبر من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن الرهان حقاً على ما في القلوب.. وعلم أن أكثر الخسائر والنقص الذي أصاب المسلمين اليوم في سياستهم واقتصادهم وحروبهم وعلومهم ومعارفهم إنما منبعثه نقص ما في القلوب..

وتأمل بالله عليك كيف ينبه القرآن على أن المدار على ما في القلوب في قول الله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّابَهُمْ فَتَحَّا قَرِيبًا}..

وقد قال أبو العباس بن تيمية عن الأحوال التي تكون النية صادقة في طلب نصرة الدين لكن يغفل عن التوكل: (وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به، فهو لا يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم، لكنهم مخذلون فيما يقصدونه إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكيل عليه)[الفتاوى: 10/277].

وجوهر التوكل والتعلق بالله في مثل هذه الأحوال أن تنخلع القلوب مما بيد الخلق.. وينقطع طمعها أن يكون في تدبيرهم شيء من الأمر.. حتى يكون نظر القلب يتقلب في السماء..

وما أكثر ما يقع في القلوب الاطمئنان للنصر وقت الكثرة والإمكانيات.. وهذا غير دقيق.. بل قد تكون الذلة مفتاحاً لتعلق القلوب بالله فتكون سبباً للنصر.. وقد تكون الكثرة والإمكانيات تهراش بثور العجب فيضعف التعلق بالله فتكون سبباً للهزيمة..

وتدرك هذين بالمقارنة بين الآيتين.. الأولى قول الله **{ولَقَدْ نَصَرْكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُونَ}**.. والثانية في قول الله **{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمُ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا}**.. فانظر كيف قاد الضعف المادي للتعلق بالله فانهمر النصر.. وكيف قادت القوة المادية للعجب فحسب من النصر بقدرها..

ثم انظر في يوم أحد كيف كان من أصعب المواقف إذ شُجّ وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكسرت ربعيته، ومع ذلك نهاهم الله في هذا الموضوع عن أمرتين في العمل والمشاعر، فنهاهم عن "الهوان" في العمل، ونهاهم عن "الحزن" في المشاعر، وكشف لهم طريق الغلبة فقال لهم سبحانه يوم أحد **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**.. فالإيمان مفتاح الغلبة..

ثم تدرك كيف يصور القرآن انتصار أهل الإيمان ببركة التضرع والتعلق بالله كما يقول الله **{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجْنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبَرًا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَمُو هُمْ يَاذْنُ اللَّهِ}**

ومن المدهش حقاً عنابة القرآن بالتنبيه على هذه العلاقة بين الصراع والنصر كما قال الله في موضع آخر **{وَكَأَيْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُ الصَابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَاتَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُ الْمُحْسِنِينَ ..}**

ومازال القرآن يعيد التصريح بوظيفة "البأساء والضراء والمصائب والخطوب والكوارث" إذ يقدرها الله على الأمم.. وأن من أجل وظائفها المصحح بها في القرآن استخراج الصراع من قلوب العباد.. ومع ذلك ما زالت النوايا تتواتي وكثير من القلوب محبوسة لا تكاد تتحرج..

قال الله سبحانه: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءُهُمْ بِأُسْنَانَ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَطْ قُلُوبُهُمْ ..}**

وقال سبحانه في موضع آخر **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخْذَنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَرَّعُونَ ..}**

وقال سبحانه أيضاً **{وَلَقَدْ أَخْذَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ..}**

وانظر كيف يصور القرآن نصر الله للقلة المؤمنة في مواجهة جيوش الأمم التي تتکالب عليها بحسب قوة إيمانهم وصبرهم ومجاهدتهم كما قال الله **{وَإِذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ فَأَوْكِدُمْ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ ..}**

وشدائيد الأيام يختبر الله بها شدائيد الإيمان كما قال الله في حكمة مداوله الأيام **{وَتَأْكِلُ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}.. ثم قال عقبتها **{وَلِيُمَحْصَنَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}..****

وفي موضع آخر من كتاب الله قال سبحانه **{قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحْصَنَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ..}**

وهكذا قول الله سبحانه **{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}.. ونظائرها..**

فالمحن هي أدق ساعات الاختبار.. والطالب النابه إذ دخل قاعة الاختبار انكب على إحسان الجواب.. فكيف تدخل علينا ساعات الاختبار فنتفنن في صياغة الإجابات الخاطئة؟!

ومن عجائب القلوب أنها إذا تعلقت بالمقاييس المادية ضمرت حدود الرؤية فيها وضاق أفقها برغم ظنها أنها أكثر حداثة ورقياً.. وإذا تعلقت بالله انفسحت لها أماه الرؤية.. وخذ مثلاً من أسباب النصر.. فإن المقاتل المادي لا يفكر إلا في وسائل المواجهة التقليدية المعروفة.. أما المؤمن فهو يعلم أن "جنود الله" لا يقدر عددها ونوعها وقوتها إلا هو، وما أكثر ما تكون مفاجئة للعدو، كما قال الله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} وقال سبحانه {وَإِلَهٌ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}..

ومن أجل جنود الله الملائكة العظام كما قال الله {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} وقال سبحانه {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا}..

بل ومن جنود الله العجيبة في نصر المؤمنين ما يسمونه اليوم الكوارث الطبيعية مثل الأعاصير والرياح والعواصف والزلزال والفيضانات.. كما قال الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّكُمْ رَعِيْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلُنَا عَلَيْهِمْ رِبَّا}..

وقال عن الفيضانات والمياه في قصة قوم نوح {وَقَوْمٌ نُوحٌ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُولَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً}..

وقال عن فرعون في قصة موسى {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}..

وقال سبحانه عن جنس ذلك {فَكُلُّا أَخْذُنَا بِذِنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْذَنَاهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}..

وقال سبحانه {أَفَأَمْنَتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * * أَمْ أَمْنَتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الْرِّيحِ فَيُغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمُ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}

وهذا باب معروف إن شاء الله، ولكن المقصود التذكير بسعة وتنوع وقوى جنود الله.. وسعة أفق المجاهد المتوكلا وضيق أفق المقاتل المادي..

الاستعانة بالحقائق:

كم في كتاب الله من الحقائق التي إذا تدبرها المؤمن في هذا الزمن وأمام مثل هذه الملمات أصبحت ركناً شديداً يأوي إليه.. فحقائق القرآن من أجل المثبتات..

ومن أعظم هذه المثبتات القرانية أن لا ينحبس التفكير على جراحات المسلمين، فإن هذا قد يورث الفتور والتقاعس، بل نبه القرآن على أمر هو في غاية العجب من الإرشادات النفسية، وهو أن يستحضر المؤمن أيضاً المآزق التي يعيشها الأعداء أيضاً، فإن هذا مما يقوى القلوب، وقد جاء هذا الإرشاد النفسي في مواضع من كتاب الله، كقوله سبحانه {إِنْ يَمْسِسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ}..

وقوله سبحانه {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلِمُونَ كَمَا تَأْلِمُونَ}..

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا المعنى المذكور في هذه الآيات هو المغزى من ذكر التضعيف في قول الله {أَوْلَمَا أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمُ مِثْلَيْهَا}، فإنه وإن كان السياق سياق عتب، إلا أن ذكر تضعيف ما غرمته الكفار من قبل يراد به التعزية والتسلية والتصبير لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وصحبه على ما أصابهم من المصيبة الحالية بأنكم قد أصبتم من الكفار ضعف ما أصابوا منكم.. وهذا من جنس ما سبق في آتي ذكر الاشتراك في القرح والألم..

وكل هذا يؤكّد عناية القرآن بهذا الإرشاد النفسي في استحضار الاشتراك في التحديات.. وعدم الاستسلام لدعاه العدو في

تهويل قوله والبالغة في تقزيم قدرة المسلمين على التصدي لهم..

ولذلك فإنك ترى في كتاب الله أنه برغم ذكره لشدة كيد الكفار ومكرهم قوله سبحانه {وَقَدْ مَكْرُوهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُوهٌ
وَإِنْ كَانَ مَكْرُوهٌ لِتَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}..

وقوله سبحانه {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بِلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}..

وقوله سبحانه {وَمَكَرُوهُمْ مَكْرًا كُبَارًا}..

إلا أن الله سبحانه يقوى قلوب المؤمنين ببيان هشاشة كل هذه الأحابيل والمكر والكيد الذي فتلوه، كما قال الله {فَقَاتَلُوا
أُولَئِكَ الشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}..

وبين أن هذا المكر مآل الإخفاقي {وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبُورُ}.. وقال سبحانه {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}..

بل وذكرهم بمكر سلفهم ونتائجهم الخائبة.. فقال سبحانه {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ}..

ويجعلها سبحانه سنة من سننه {اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.. وقال سبحانه {ذَلِكُمْ وَأَنَّ
اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}..

والعقل الذي يسبر التاريخ ويعرف أخبار الناس وأيامهم يعلم حتى ولو لم يبلغه الوحي أن كيد الخونة لا يتمر.. ولذلك حكى
الله سبحانه {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}..

بل إن الذي يعلمه أهل الخبرة بأيام الناس ليس أن كيد الخونة لا يفلح فقط، بل كثيراً ما ينقلب عليهم، كما قال الله {أَمْ
يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}.. وقال سبحانه {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَوَقْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}..

وهذه التنبيهات المتكررة عن سقوط كيد الكفار مقصود بها تصفية شعور المؤمن من قطعاً كما قال الله {وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا
يَمْكُرُونَ} وقوله سبحانه {وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}.. لأنه كلما صفي باطن السلاح كان أنفذ لطلقاته..

والأهم في هذا كله أن يعرف المؤمن طريق بطلان الكيد والمكر الكفري الكبار، وهو مرأة أخرى: التعلق بالله وتقواه، كما قال
 سبحانه {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}..

ومن حقائق القرآن التي تشد أفئدة المؤمنين المستضعفين أن فتح أبواب الإمكانيات على عناة الكفار هي اللحظات التي
تسبق الأخذ الإلهي المباغت كما قال الله {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا
أَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِنَّا هُمْ مُبِيسُونَ}..

وقال سبحانه {ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَاتَلُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يستحضر المؤمن أن الله جل وعلا ينصر أولياءه بحسب ولايتهم بنوع رعب يلقى فيه قلوب
أعدائهم، كما قال الله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَّعُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأْلُقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ}..

ولكن ما سبب هذا الرعب؟

الحقيقة أنه كما أن إفراد الله بالتعلق والتوكيل عليه وتفويض الأمور إليه سبب لقوة القلب.. فإن الشرك الذي مادته وينبوعه التعلق بغير الله هو سبب الرعب الذي يقع في قلوب الكفار، كما قال الله {سَنُنْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ}..

ولذلك قال أبو العباس ابن تيمية عن مركبة قوة القلب (الشجاعة ليست هي قوة البدن، وقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته) [الفتاوى: 28/158].

ولذلك كثيراً ما يتسائل المتابعون: ما سبب شيوع الضعف المعنوی في مقاتلي الكفار؟ والحقيقة أن من أعظم ذلك هو هذا الكفر الذي في قلوبهم، فصار تعليقهم بغير الله سبحانه، وكل من تعليق بغير الله لحقه من الخور والوهن بقدر ذلك..

وقد نبه القرآن على كثرة فرار الكفار في قتالهم في مواضع متعددة، منها قول الله {إِنَّ يَخْرُجُوكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}..

وقال سبحانه {وَلَوْ قَاتَلُوكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا}..

وقال سبحانه {لَئِنْ أُخْرِجُوكُمْ مَعْهُمْ وَلَئِنْ قُوْلُوكُمْ لَيُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}..

ومن أسباب هذا أن القلب إذا خلا من التعلق بالله تعلق بالدنيا، كما قال الله {وَلَتَجِدُوهُمْ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ}..

فكلما شمخ المؤمن في أفلاك التعلق بالله زادت طمأنينة وسكننته وقوه قلبه.. وكلما شرك الكفار وشاطرهم شيئاً من التعلق بغير الله اعتراه من الرعب على قدر ما شاركهم.. وهذا فرع عن قاعدة "تبعيض الجزاء بقدر العمل"، وهي قاعدة نافعة عظيمة في تدبر الأعمال والجزاءات في القرآن، في باب الثواب وباب العقاب كليهما، وجواهر هذا الأصل هو "التحذير من مشابهة الفعل بالفعل، لا إلحاق الفاعل بالفاعل"، وسبق نشر شيء عنها، وسانش لاحقاً المزيد بإذن الله من تطبيقات النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فيها..

ومن أعظم المثبتات أن يوقن المؤمن أن هذه التحالفات الفاسدة، وهذه الخيانات التي يتذلل فيها الضعفاء للمستمكدين.. سيأتي يوم قريب يت disillusion فيها بعضهم من بعض.. كما قال الله: {إِذْ تَرَءُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ *} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَرَءُ مِنْهُمْ كَمَا تَرَءُوا مِنَنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}..

ومن معاني القرآن في مثل هذه الساعات أن يستحضر المؤمن أن الله جل وعلا حين ذكر في كتابه آية "حياة الشهداء" {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} أعقابها فوراً بذكر صنوف الابتلاء {وَلَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ} فيرتفع ثواب الشهادة بقدر مصايرة المجاهد على لأواء طريقها..

إنه أوان البأس الذي رفع الله شأن الصبر فيه حين قال {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وحين البأس هو أوان شدة القتال في سبيل الله كما قال أهل التفسير.. وقارن مدح الله المؤمنين بالصبر أوان البأس بذمه فرار المنافقين منه في قوله {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية حال ملاحم أهل الإسلام أن يستحضر المؤمن أن إخوانه الذين سبقوه على هذا طريق سنام الإسلام ورأوا - بإذن الله - من كرامة الله لهم ما صاروا به يستبشرون بمن مازال على الطريق.. كما قال الله {وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يوقن المؤمن أن ما يعتري قلبه بين فينة وأخرى من التخويف والترهيب من تحزب أمم الكفر إنما هو من الشيطان الذي يخوّف المسلمين بأوليائه الكفار كما قال الله ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أُولَيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، أي "يخوّفكم أولياء الكفار" كما قال أهل التفسير..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يتدرّب المؤمن في كتاب الله "أغراض الإماء للكفار" كقول الله سبحانه ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾..
وقوله سبحانه ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾..

وقوله سبحانه ﴿أَيَّا حَسِيبُونَ إِنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾..
وهذه مجرد أمثال ونماج، وليس المقصود طبعاً الاستقصاء والتتبع، وهي حقائق قرآنية إذا تدبرها المؤمن وعَقَلَها وعاش معناها كانت له من أعظم العون في مواجهة مثل هذه الدواهي العظام التي تطوق أهل الإسلام.. فكم في تدبر القرآن من ظهير وسند..

تدشين المراجعات:

من أجل أنوار القرآن في مثل هذه الحنادس الدعوة إلى مراجعة العلاقة بالله.. وأن الانكسار في الجهاد فرع عن شرخ في التزكية.. كما بين كتاب الله هذا في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضٍ مَا كَسَبُوا﴾..

وقال سبحانه ﴿أَوَلَمَا أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَئِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾..فيا لله العجب ما أشد شؤم المعصية.. حتى ضعفت طاقة المجاهد ومال للفرار ووقع عليه الأذى بسبب ذنب!.. فإذا كان هذا على المجاهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكيف بنا نحن اليوم؟!

ومن كمال الدلالة القرآنية أن بيّن القرآن المعنى وضده، وهو أحد الأوجه في تفسير وصف الله لكتابه بأنه "مثاني"، ومن أفراد هذا المعنى ها هنا: أن الله كما بيّن أن المعاصي سبب للهزيمة فقد بيّن أن الطاعات سبب للثبات كما قال الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

وأنتم يا أهل السنة في الشام وسط بين طرفين من المنتسبين للإسلام.. حيث ذكر الله في كتابه ثلاثة أطراف في قوله ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾

فقد حُرم فئام من المسلمين من شرف الجهاد معكم.. وشارکكم طائفة من الغلاة قتال الكفار لكنهم "اعتدوا".."وبقيتم أنتم بإذن الله من جمع أطراف الشرف في هذه الآية ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾..

وتقوى الله كما تكون في قتال المعتدين فإنها تكون في ترك العدوان في القتال.. فسنام الإسلام ليس للمخذلين عن الجهاد ولا للمعتدين في الجهاد..

والمراد أن شرف jihad الشرعي وسط بين من دعى لترك قتال الكفار والمسلمين سوياً وهم المخذلون، وبين من دعى لقتال الكفار والمسلمين سوياً كالغلاة، وهذا الوسط يتبيّن بمعرفة مثارات الذنوب في القوة الشهوية والغضبية المركوزة في النفس البشرية وسيأتي تفصيله في فرصة قادمة بإذن الله..

ومن أعظم أنوار القرآن في مثل هذه المداليم تدبر ربط القرآن النصر بقدر الاجتماع.. وهذا موضع تُسَكِّب عنده عبرات المحبين للجهاد الشامي.. فقد تقرّرت الآفاق من مشهد الانفصال.. والله يقول {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَنْهَبَ رِيحُكُمْ} فعلى قدر التنازع والانفصال يكون ذهاب الريح، وعلى قدر اجتماع الكلمة يكون النصر..

بل انظر كيف أن "التنازع في الأمر" في موقف واحد حال الملحمة فتح على المسلمين من الانكسار بقدرها، فكيف بالانفصال والتنازع والانفصال على طوائف وأحزاب؟! يقول الله: {وَلَقَدْ صَدَقُكُمُ اللَّهُ وَعَدُهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْتُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}..

وتدرك هذا الذي وقع على سادات الأولياء الذين جمعوا شرف الصحابة وشرف الجهاد في موضع واحد كله بشؤم التنازع العارض من أعظم ما يقتلع من القلب جذور الحزبية القتالية..

وهذه الجراحات التي تقع بين فصائل القتال المتحزبة هي من جنس العذاب الذي يسلطه الله سبحانه كما قال جل وعلا {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يُلْبِسَكُمْ شَيْئًا وَيُنِيبِقَ بَعْضَكُمْ بِأَسَاسٍ بَعْضٍ}..

فكل من سعى في رأب الصدع ولم شمل أهل السنة فقد سعى في رفع العذاب عنهم.. والله سبحانه يكون في عون العبد إذا كان العبد في عون واحد من إخوانه وفي لفظ كان الله في حاجته، ويخرج عنه كربة من كرب يوم القيمة إذا فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا، وكلاهما في الصحيحين، فكيف بالله عليك من سعى في رفع العذاب عن طوائف الأمة، فكيف سيكون ثوابه؟ ولذلك عظم الله في كتابه شأن الإصلاح بين الناس في مواضع متعددة..

ومن أعجب دروس القرآن في مثل هذه اللحظات، بل هي من معجزاته ودلائل نبوة من أتى به، أن أصحاب التفكير الذاتي والمصالح الشخصية الذين لا يفهمون إلا أنفسهم أو وطنهم الجغرافي المسيسي، ولا يفهمون أهل الإسلام؛ هذه الشريبة هم مادة الواقع في "ظن الجاهليه"، الذين لا يثقون بوعود الله، كما قال الله {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهْمَمْتُهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَ الْجَاهِلِيَّةِ}..

وما أحسن عبارة ابن كثير عن أصحاب هذا التفكير إذ قال في تفسيره (اعتقدوا أن المشرعين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة).. وهذا الظن الذي سماه القرآن "ظن الجاهليه" ما أكثر ما رأينا في أصحاب الدعوات "الوطنية الجاهليه" .. وهكذا فجاهليه الراية تورث جاهليه المشاعر..

والحقيقة أن الظنون المرتبطة كثيراً ما تنجس لحظة احتشاد الأحلاف وإحاطة كمامتها بأهل الإسلام كما وصف الله يوم الأحزاب بقوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَاجَرَ وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}..

وهي من أحل لحظات الاختبار لأهل الإيمان كما في الآية التي عقبها {هُنَالِكَ ابْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَرُلُزُلُوا زِلْزاً شَدِيداً}..

وهي أيضاً أكثر لحظات الإخفاقة للقلوب التي ضعف فيها اليقين كما في الآية الثانية بعدها {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}..

ثم لما حكى الله المقوله النفاقية التي نجمت في هذه المحنة "ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا" جاء بعدها ببعض آيات حكاية المقالة الصحابية الإيمانية التي تتلهف النفوس الشريفة أن لو كانت شاركت بمثل هذا الموقف..

ذكر هذه المقوله النفاقيه السابقة يوم اجتماع الأحزاب {وَإِذْ يَقُولُ الْمُتَّافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}..

ثم اقرأ قول الله ببعض آيات {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}..

لا إله إلا الله.. هذا والله الشرف.. هذه والله المعالي.. هذه والله القلوب.. يارب نسألك أن تعمق فلوينا بكمال التوكل عليك واليقين بك وبوعدك..

ومن المؤكد أن الفارئ لم يفته ملاحظة الاشتراك بين وصف القرآن لحال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر، ووصف القرآن لسادات الأولياء من الصحابة يوم الأحزاب، فقد قال سبحانه عن احتشاد الأعداء يوم بدر **{الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ إِنَّ النَّاسَ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوكُمْ لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَلَا يَرْجُمُ الْوَكِيلُ}** فوصفة بأن الخطيب زاده إيمانا..

وبنفس هذا الوصف قال سبحانه عن احتشاد الأعداء يوم الأحزاب {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} فوصفهم أيضاً بأن الحديث ما زادهم إلا إيماناً..

وربما لم يفت القارئ أيضاً ملاحظة أن "ظن الجاهلية" ذكر الله ظهوره في الوقعات الثلاث:

- **قال عن غزوة أحد {يَظْلُمُونَ بِاللَّهِ غَيْرُ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}**
 - **قال عن غزوة الخندق {وَتَظْلَمُونَ بِاللَّهِ الظُّلُمُونَ}**
 - **قال عن منصرف رسول الله إلى عام الحديبية {وَظَلَمْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ} ..**

فهذه من الأمراض المتكررة الظهور في اللحظات الحالية..

ومن أشد الأمراض التي تفتك بالковادر المنتسبة للجهاد أن يكون ولاؤها ونفرتها على قدر حظ نفسها، كما قال الله عن جنس ذلك {فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضْوًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوهَا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}..

ولكن النفوس إذا مرضت أظهرت موالاتها في قالب جمع الكلمة، وأظهرت معاداتها في قالب الصدح بالحق.. وللنفوس من الخبيا والأغوار ما لا يقدره إلا الله..

ومن أعظم المراجعات التي تستدعيها الأحداث إعادة بعث الهمة باستكمال تحكيم الشريعة في كل شؤون الحياة.. وكثير من غزت قلبه النظرات المادية في الاجتماع البشري يظن أن "الشريعة" غرضها البعد الأخلاقي الفردي فقط، وهو فكر يروج بين من يمكن تسميتهم "متصوفة الحداثة"، وهم خليط من العلمانيين الذين يسمون أنفسهم المتصالحين مع الدين والمتقاربين معهم من روحيي الفلسفة المعاصرة، فيحصرون الإسلام بالتفسير الأخلاقي، بالتعريف الضيق للأخلاق، وهي فكرة قديمة قد تعود لتصبح موجةًاليوم للتجمل أمام مدارس النقد الأخلاقي الغربي للحداثة، ولا يدرك هؤلاء – أو يدركون لكن لا يعيشون المعنى يقيناً – أن إقامة الشرع زيادة على كونها لتحقيق العبودية لله فإن لها "آثاراً منفصلة" في الدنيا بهطول الخيرات ودفع الجوائح، كما قال الله {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقْوَا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}..

وقال سبحانه {لَوْ أَنَّهُمْ أَفَمُوا التُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ}..

وقد قال أبو العباس ابن تيمية: (فقد علم بالاضطرار من النقل المتوارد، والتجارب المعروفة، أن الأعمال الصالحة توجب أموراً منفصلة من الخيرات في الدنيا، وأن الأعمال الفاسدة توجب نقيض ذلك، وأن الله تعالى عذب أهل الشرك والفواحش

والظلم، كقوم عاد وثمود ولوط وأهل مدين وفرعون، بالعذاب المنفصل والمشاهد، الخارج عن نفوسهم، وأكرم أهل العدل والصلاح بالكرامات الموجودة المشاهدة، وهذا أمر تقر به جميع الأمم، فكيف يقال إن العبادات والطاعات ليس مقصودها إلا ما يوجد في النفس من صلاح الخلق؟ [الصفية: 2/238].

والبوج الأخير في هذه المقالة هو تأمل درس الحضارة الغربية مجدداً.. فتواطئ الأحزاب على الشام وإنقاذ النيران على أهله مجرد تأكيد جديد ليوقظ الذي مازال يخفق قلبه بالهياج بالإنسان الغربي وتعشّق القيم في الحضارة الغربية.. وليرأ قول الله {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}..

اللهم استعملنا في تقوية قلوب إخواننا المسلمين..

والله أعلم،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآل وصحبه،

صياد الفوائد

المصادر: